رَجُلٌ لاَ شَرقِـيّ وَلاَ غـَربـيّ

(مجموعة قصصية)

زينب ابراهيم الخضيري

إلى رجـــل مختلــف،

مختبئ خلف قشرة القسوة ،

معانقاَ السماء بكبريائه،

عائدا من جحيم القرار إلى اللا قرار.

زينب

ابوة مشوهة الحسن

لم أستطيع أن اتوازن بعد أن التقيت بطفلي بعد عشر سنوات من الفراق ، اذكر آخر مرة رأيته فيها كان يبلغ السادسة من عمره ، ملامحه لم تتغير كثيرا ولم استغربها فهو يشبهني ، وانا لست من الذين يحبون ابنائهم الذين يشبهونهم ، وكأنه يعاقبني بوجهه النسخة الكربونية مني ، عشقه لأصابع يدي التي كانت بمثابة اللعبة له حيث أنه تعود أن يشبك اصابعه الصغيرة بين فراغات اصابعي وكأن الفراغات بين اصابعنا امهات لأصابع اطفالنا،انانيتي واندفاعي حَرماني من اجمل لغة تكتب على اوراق الحياة وهي طفولة أبني فثقافتي وسِعَة اطلاعي لم تمنع عني فساد الاخلاق ، يصبح هذا العالم أضيق من عين الإبرة عندما تشاهد نفسك على مسرح الحياة ، تتفرج على تصرفاتك وأقوالك : لم اكن يوماَ اباَ يستحق الاحترام والحب ،

كنت ازجر طفلي وهو في سن الخامسة من عمره بصوت عال فقط من اجل ان اتفرج على مباراة كرة القدم ، لم استوعب الابوة كثيراَ، ولا اعتقد انني اصلح لها الان فهي تعطي الآخرين شكلا آخر للحياة ، المارد الحزين الساكن بداخلي يحاول أن يخرج ، ولو خرج لقتل سعادة ألأطفال ، ان التناقض في شخصي عظيم جداَ ، ولكن مفهوم الحياة بالنسبة لي هو التناقض ،كانت رجولتي مقصوصة الجناحين ، وخبرتي في الحياة لم تشفع لي حماقاتي ، كذلك تجاربي لم تحصّني تجاه الخطأ ،- ي الله - سحقاَ لقلبِ لاينبت فيه عشب .

نحن البشر نشترك بأشياء كثيرة مثل صراع الشهوات ، كراهية الموت والخوف منه، كلنا تشرق علينا نفس الشمس ونتغزل بنفس القمر ، السنا بشرا نعيش بتراتيبية تسحق بعضها بعضا ؟

ربما انا ضحية عذابات والِدَيّ التي فُرضت علي قصرا دون اختيار او تنقيح ،اعلم انه لا سبيل لاستدراك مافات ولا حتى من خلال اغداق الحب المزيف على ابني الذي للتو تعرفت على بعضِ منه..!

وفي محاولة بحثي عن ذكرى جميله تجمعني معه لا اجد الا شروخ وجروح في ذاكرة الزمن، إنني لم اجد ما اعتز بتذكره حتى ألآن فكلما تقدم الانسان وتدحرج الى الامام اعتقد انه يحافظ على مكتسبات وذكريات ، اليست الذكريات جسر نمده لعمر مضى فلا نجد الا شيخوخة تهزمه.

وارجع لألقي النظر لعيني ابني فإذا بهما كالصحراء ذات التراب المتحرك التي تبتلع كل الم ، وبالرغم من انهما حنونتان إلا انني احس انه يوشوش كل ليلة في أذن الحزن بكل رقة عن احلامة المغدورة ،وطفولته المقهورة ،ووجهه المسكون بأسى الشيوخ ،بينه وبين الفرح شيء قاس يصعب ابتلاعه،رغم عشقه لسير النبلاء كما حدثني بشغف عن قراءاته وعشقه للتاريخ والسير إلا انه لم يكن نبيلا لدرجة التسامح وبسط كف الود للكل ، كان يشتم كل ماحوله بطريقة أنيقة مؤدبة وبلغة انجليزية لطيفة،هناك نظرة شفيفة في عينيه وبوح يكاد يشق وهج الشمس من وضوحه ، اودعني كل اسرارة بنظرة وسكت ،ورث بؤس الخوف من الماضي والارتياب من الحاضر مني، كل هذا ولّد لديه شعورا بالنقص الذي لا يكمله كلام أو زينه،ربما هي تربيته الدينية عند اخوالة وضعته داخل إطار القداسة الاجتماعية ، فحتى ضميره أصبح احد من شفرة الموس، وعندما يفكر كأي مراهق بامرأة جميلة تنهار الأرض من تحت اقدامة ويقرأ على نفسه المعوذات ، ويلعن الشياطين التي قادته للتفكير العاري من الأدب ،وعقله الصغير المليء بالتشوهات التي لن تندمل مع مرور الوقت بل ربما تزداد قبحاَ، هي نفس التشوهات التي احملها مع فارق السن ، ورغم شقاوة مراهقته المليئة بالممنوعات ، وواقعه الوعر المليء بالوعظ والإرشاد والوصاية على عقلة وجسده لازال باب روحه موارب لينفتح على أشياء بيضاء لم تمسها أيدي البشر الملوثة بدماء الحقيقة . ربما احتاج ان انزلق على صابون المبادئ كعادتي ، لاتزلف وأتقرب ليحبني ابني ،، ولكني سهرت ليلة كاملة افكر بسؤال حائر اجرد وهو :لماذا احتاج ان اتقرب لأبني وأحبه ؟

تعـــــــرية

فرك عينيه بشدة وهو يحاول ابعاد النوم عنهما ، فلا زالت ريشته عالقة بين اصابعه مغموسة بألوان اخترعها للتو وموسيقى فاغنر تحيطة من كل حدب وصوب، وقد بقي على افتتاح المعرض ٧٢ ساعة تركض برشاقة الغزال ،وتحلّق كصقر متجه نحو فريسته.

ليقول في نفسه : النجوم نتنتحر على عتبات هذه اللوحة اللعينة التي ترفض ان تنتهي ، إن اصابعي تتوسل اليها ولكنها التهمت كل الالون وكأنها اعصار تورنيدو لا تشبع من الدوران وجرّ ما ورائها بلمح النبض : متلهف وخائف ومتوتر : بعد عشر سنوات من الانتظار يستعرض جنوني امام حلم اقامة معرض خاص بي،لقد كنت ارسم وارسم ولا احد يقيم وزن للوحاتي وخطوطي ، وأسرتي لم تتفهم شغفي بعالم الالوان وامتزاجي به حد الذوبان ، اشم رائحة هذا الفجر له أنفاس سريعة تربكني كالقصيدة الكسيحة، يا لرأسي العنيد هذا الذي لم ينصاع الى الآن لتعليمات جسد منهك ينهش بعضه بعضاَ..!! تبا لذاكرتي التي لا تغفو إلا بقرص منوم للمشاعر يشبه قرص الشمس تحت رواق الكون : - ثم اخذ يعد انفاسه ويداه غارقتان في بحر لوحته ليهمس بشفتيه قائلا : الأشعة تغازل أزهار تقف بجانب جداول المياه معانقة أعشاب النور.كأن جميع الأشياء انتعشت انتعاش الخارج من أزمة تضنيه.آه : لعلي استسلمت لجمال الليل فغشاني سحره كزهرة فرحه بأنفاس الربيع ، آه : ولأني في عالم نشوء وارتقاء سوف أوقف الأمنيات هذه سنة : سأكتفي بتحقيق حلمي (تعرية) ذلك المعرض الذي اسميته ،وكأني ابحث فيه عن عين الحياة التي أوجدها *(زفس).

آه : كنت أخشى أن يقبض الله روحي وأنا عاجز عن التعبير عن اشياء صغيرة بداخلي ، وان وفائي لكل شيء حولي يربكني ،وبذور موهبتي اجمعها ثم أرمي بهآ عآلياً لكي تطيـر وتتبعثر في القلوب .

اراح نفسه قليلا واخذ يرتشف من فنجان قهوة باردة ، وينفث دخان سجائرة لتختطفه لحظة طيش عابثة ، واذا به يكلم النافذة التي امامه ليقول لها بصوت عال مخاطبا اياها:

قبل الليل كنت اتسائل :

اليست الحياة موجة ، ونحن كحبل في نهايته حجر يتشبث بنا وبها . يا نافذة مطلة على شرفات السكينة ، أنا اليوم وكل يوم ككتاب مفتوح، يأتي الشتاء ليُعري الأشجار من أوراقها أتريني كالأشجار في الشتاء ؟ وانا الذي قطفت سبع وردات على حِده بمقص التعبّد والتأمل ، وأيام جميلة مضيئة، وغريبة وصعيبة يتصاعد عطر جمالها بكل هدوء محملا بشذا رياح الشمال الممطرة.

وبعد الليل أجيب :

في حياة الفنان يتعلق الامر دائما بذلك الانتظار الذي ربما يكون بلا جدوى،وفي الفن يأتي اللون والصوت والحسّ معاَ ،او يضربون فلا يأتون ابداَ. وهو كالسر المفضل ، وكالحرف الابيض الواقف في باب اللغة الملون ينتظر يوما بعد يوم الموافقه على ان يدخل ،وافكار تجتمع حد القلق ، وتساؤلات كقطرات المطر الرتيبة ، فما الذي يمنعني ان احلم بنجاح باهر ؟ ولوحاتي المضاءة بنور الحقيقة ماهي الا جهد فنان يبحث عن العدل ،والحب ،والمساواة في غابة صمت ملعونة ، واللون مثل الموت تضيع حقيقته عند نقطة بيضاء ، ربما هي فوضاي العميقة تفتح ازرار الحقائق المغلقة ، يا ايتها النافذه ...

يا ايتها النافذه ..

هناك لوحاتي ، واشار الى لوحته الاولى ثم قال :

وجوه كثيرة يظهر عليها توتر مكبوت ، محنطة كالقمر الذي لازال يحتفظ بآثار خطوات آرمسترونج فيه ، فربما نختفي نحن ذات يوم وآثاره لم تختفي.هذه اللوحة بتضاريسها الزرقاء الشبيهة بالحزن تذكرني بوجوه تعلوها سحابة من الكآبة ،كنسغ اخضر لمّاع ، ولقد سرى هذا الشعور في جسدي وأنا أتحسس هذه اللوحة الخالية من الإحساس ، ان هناك حالة يأس أسود تعتلي الوجوه المرسومة في اللوحة وكأنها تعبر عن كلام جاهز للمناسبات الكارثية، ان هذه الوجوه الكئيبة تتعارض مع جوهر كياني المَرح ، إلا أنني شُغِفتُ فيها لصَمتها الممزوج باليأسِ ،قد نلحظ أنها تعكسُ أرواحنا عندما تخلو من فيض المشاعر وتختار الحُزن بديلاً ، لاشيء يُضاهي مشاعر علتها حالة الكسل ، إن كسل الأحاسيس مُفيدة لأنها تشعرنا أننا غير مقيدين بأي شخص، ولا نتحمل تبعات الإحساس بتأنيب الضمير تجاه أي شيء .

ارتشف قليلا من القهوة واشار الى اللوحة الثانية بكل زهو واعتداد مشوب بخبث ونظراته الغير مستقرة تنتقل ما بين اللوحة وباب المعرض ، رافعا يده اليمين الى اعلى ويده اليسرى وضعها على خاصرته ليقول :

واضحة كالقمر عند تمامه،أنامل رسمت بدقة إمرأة وحكمة رجل ولون الحياة يتدفق من شراييهما ،وخلفية صفراء لا تنبئ عن شيء، ولقد تماهت الألوان بهما كقوس قزح سلّ سيفه في صباح جزئي غائم بين هتّان وشعاع شمس باردة ، انهما كعاشقين يحاولان خلق واحة سعادة في حياة مجدبة ، ولقد حاولت استعادة كل مشاعر الحب واللذة التي عرفتها من خلال ذاكرة قلبي، واني لي قلب كقلب إمرأة، فهل تأملت اللوحة مليا ايتها النافذة ؟ هل ادركتِ اننا أحيانا نُرغم على أن نتأمل نهاية أشياء جميلة لا نتمنى نهايتها ولا نملك شيئا لبقائها، وفي هذه اللحظة رغبت أن تضمني امرأة حنون ،ان الحنان أجمل صفة في العالم ؟ فلماذا تلتصق

تلك الصفة بالأمهات فقط ؟ : عذرا لا اعلم ما أصابني هل غفوت أم أن الموسيقى التي اسمعها نقلتني من جاذبية إلى أخرى وكأنني إلكترون غادر مجاله.فالمشاعر الصادقة لا تحتاج لكلام.

ثم ادار وجهه عن النافذه وتوجه بكل مافيه نحو هذه اللوحة ، وجلس يقلب عينيه فيها ليتسائل عن سر هذين القلبين قبل أن يجتمعا ، هل مرا بخيبات ؟ فلا شيء يبلور الروح إلا الخيبات ، و أن الروح لتكتوي بالألم لكي يخرج منها بخار عذوبة ورقة ورضا، إن بعض القلوب نحتاج ان تمسح الغبار عن أرواحنا لتضيء.

ثم التفت فجأة الى لوحته الثالثة ليصرخ بوجهها ويوبخها ويعايرها بأنه قد سُحب منها عصب الحياة ،حيث صورة امرأة تبدو متأففة من كل الحياة في اقصى يمين هذه اللوحة ، وهنالك صديقان يجلسان متقابلين في وسطها ويبدو أن انفعالاتهما أنهكتهما من كثرة النقاش .وكأنهما غارقان في إعادة تقييم العالم الخارجي ، الأول بشرته بلون التراب ، شعره اسود فاحم ، وذا ثقافة استعراضية ،و ثقافة لا تمسه في العمق بل يلتزم بها وسط الجماعة والمفكرين ليثبت وجوده فقط.والآخر يحمل عينان تعكسان لمعة ذكاء،ويرتدي معطف طويل من الجلد ، ويجلس على طرف الكرسي على استحياء ، وكأنه يتفرج على تبدل الأخلاق وسطحية العواطف وزيف العلاقات البشرية. وامرأة تحاول سرقة رجل من بيئته، ورجل يحاول سرقة أفكار امرأة ، وما بين سماء اللوحة وأرضها ، هنالك معلّق يخشى السعادة وليس اهلا ليعيش الحب فهو سليب الشجاعة .

ثم رجع ينظر الى النافذة ليغلقها ويتناول فرشاة الوانه ليكتب على اطراف النافذة هذه الجمل:

هذه اللوحات الثلاث هي بمثابة شارع وسط المدينة ينبض بالفرح والحزن،الرقص والبهجة ، وصيوان العزاء ،تجتمع كل حوادث الحياة أمامنا فنطل عليها من علو شاهق لا ماضٍ لا حاضر لا مستقبل ، ويغدو كل شيء لقطة زمنية كثيفة. اتسئليني هل علي أن اواجه مصيري بدمعة أم بضحكة ؟ هل علي أن احب كل الناس ؟ كم اكره الناس الذين يحركهم في تصرفاتهم شعور الواجب اتجاهي .وهل القلب الكبير الخافق بالحب يمكنه أن ينثر شيئا من الرجاء والفرح في قلوب حزينة ؟

***(زفس) في خرافات الأقدمين حول جوبتر اله الآلهة حورية من بنات الماء إلى ينبوع يعيد الشباب والصحة إلى كل من استحم بمائه.**

رسالة غامضة !!

لم يكن رجل البحر أسطورة أو اكذوبة تنسجها خيالات كاذبة بل انه رجل من وحي الواقع . وأمام تداعيات الحياة نختبر مشاعرنا التي غابت وتوارت خلف بشرتنا المصبوبة في قوالب شمع ما ان تمسنا حرارة تلك التداعيات تنصهر لتفارقنا.

هنا بالقرب من صدرها الأيسر نبض له صوت قرع الطبول سمعته في ذلك الصباح الخالي من المشاعر فاجتاحتها نوبة غريبة من الاحاسيس والمشاعر ، وحلقت معها والتصقت بها كطائرة ورقية في خاصرة السماء ، ولم تمنع نفسها من هذه الموجه السارية في جسدها .

في مساء خريفي مصفر، جلست أمام حاسوبها ، وفتحت الجهاز، ثم اعتدلت في جلستها، ارتشفت قليلا من قهوتها، وأعادت الفنجان إلى صحنه متأملة الرغوة التي تغطي سطح فنجانها الأسود اللون. حرّكته يمنيا وشمالا مراقبة الرغوة وهي ترتسم على شكل غيمات مكتظة بالفرح، عادت وفتحت نافذة أخرى على موقع الجزيرة مباشر فهي تعشق السياسة ولكنها لا تحب السياسيين، دخلت على حسابها في "الهوتميل"، ضغطت على احد ازرار لوحة المفاتيح لتفتح على صفحة جديدة وهي لا تعلم لماذا تريد إرسال هذه الرسالة الإلكترونية ، أحست بدافع غريب يحثها على الكتابة له مع أنها لا تعرفه جيداَ ، هنالك شيء خفي داخلها يتنازعها لتكتب له أي شيء .. عن أي شيء !!

بدأت بالكتابة وأصابعها ترتعش على غير العادة ، بدأت رسالتها بـعزيزي وهي مترددة لا تعلم هل هي لائقة أم لا، ثم استرسلت بالكتابة بكل عذوبة قائلة:

"هذا المساء سوف أرش قليلاً من مبشور الصدق على كعكة المبادئ، تجردت من عقلي وقناعاتي بأن الحياة إما لون أسود كفنجان قهوتي هذا المساء ، أو لون أبيض ناصع كمفرش سريري ، وخارج خرائط الحياة، ومثلثات البشر نحن ننزع بطبيعتنا الخائفة إلى الوسط ، ما بين الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فنعلق كغبار رمادي فلا نستطيع فكاكاً من أنفسنا .

إنك إنْ تعاند قناعاتك معناه أنْ تخلع ثيابك التي اعتدت عليها ، وفصلت على مقاسك إلى لبس ثياب أخرى قد تكون ضيقة حد الاختناق ، وقد تكون فضفاضة لا تناسبك لأنها ليست لك في الأساس ، وستظل قلقا طالما أنك ترتديها .

نحن البشر قد نكون قبيلة من الحزن ، أو كتائب من الفرح، بداخلنا سهول وهضاب من قلق وعناد و حب وخبث و لؤم وطِيبة ، فبعضنا يحب أن يتحدث إلى الغيمات ويتسلق المطر، وبعضنا الآخر ينزع إلى الأساطير ويدخل بها، ويقتنع بها ، ويصبح كأن له ثلاث آلاف سنة من الخبرة والدراية مع انه لا يحمل أي شيء منهما .

تعلم يا هذا أنني لم أكن يوما ابنة جيرانكم ، ولست صديقا تتفيأ بظله في قائظٍ من لهيب الحياة، وعند فرحك لم أكن هناك لأشد على كتفك ، أو أغطيك بمفرش الود والحب عند مرضك ، ولم أتقاسم معك معظم لحظات حياتك ، وإن بعض البشر

يسكنون القلب دون أن نعمل لهم تحميل يدمرون كل ملفات الحزن السابقة ، ويعملون مسح لكل شيء من أجل أن يكونوا هم فقط الموجودين بذاكرتك ، فيتسللو كاللصوص ويرقصو كالغجر، يمطروك بطيبتهم، ويطمئنوك بضحكة أعينهم، ولطافة أرواحهم وابتساماتهم القزحية، وكأنهم يوزعون الغارديينيا على روحك كل صباح.

هل تعلم يا رجلاَ جاء من المستقبل:

أنْ بعض البشر يوقظ حواسك النائمة..

يجلبك من بئر الوحدة إلى نهر الجموع ..

ينعش ضجرك ..

يلازمك كالضحكة الهاربة بين الغيمات،

وإنك معهم ترى الأشياء نائية هادئة، بلا زيف، وتعود معهم كأنك طفل يلبسك البياض ويطوقك الصدق.

أتساءل لماذا يفشل بعض البشر في استحضار الفرح إلى مائدة حياته، ولماذا نحن دائما مأزومين مهزومين حيارى ؟!

لماذا لا نحاول أن تسكننا السعادة، وما معنى أن يكون اسم صديقتي فرح وقلبها مليء بالحزن، أليس لكل إنسان نصيب من اسمه ؟

ممتنة لك إن أكملت قرائتي".

وعلى قدر ضراوة اللحظة السعيدة التي شَعرت بها ، على قدر ما أصابها خوف وارتباك من تعرفها لشخص لأول مرة ،ولا الومها بذلك فانا مثلها لا أحب أن يقتحم سياج نفسي إنسان لا أعرف حدوده ولم يتقاطع معي يوما ،ولا أعرف هل هو ترياق جمال أم علقم قبح ، وإن الإنسان المفرط بالحساسية المتعود على الاعتذار حتى من نفسه، تصبح الحياة قاسية عليه ، جارحة ومؤلمة ، فلا يستطيع مد يده للقمر لمصالحة حياته ولا للشمس للشكوى منها،لذلك لم الومها انها مسحت رسالتها وأغلقت حاسوبها ولم ترسل.

رصيف النوازل

الكبرياء المثقوب في روحي يفجر بركانا من العنف أللاإرادي لا أملك له فكاكاَ، وفي اللحظات الهاربة من عمري تتجاوزني الخيبات في اقصى سرعة لها ، فلا استوضح لونها او حرقتها ، مثل عصارة المعدة التي نحس بها من خلال ذالك الالم الحارق الذي لا نراه ولكنه يلسعنا من الداخل ،وفي لحظاتي المحتضرة اقصد ذاك المكان الموجود اسفل الطريق وبجانب الرصيف اوقف سيارتي واحلق في الفراغ الموحش ، تربطني علاقة غريبة بهذا المكان اسميته "رصيف النوازل" ففي كل نازلة اقصده ، مرات كثيرة دشنت مسلسل احزاني هنا في هذا المكان المقفر إلا من خيالي،اكمل رحلة اكتشافي لجغرافية نفسي متجاوزا السؤال التقليدي من انا ومن اكون الى من هم وماذا يردون مني ؟

هنا مكاني رصدته لي الاحزان ،فأنا لا اجيد فن تنسيق الغضب بسبب سلبيتي الزائدة وخوفي من فقدان الاصدقاء ، اصاب بطعنات داخل قلبي إلا انني احاول كتمان صرخات الالم لا ادري ما سبب هذا العجز الذي يكبلني فلا اضع نهاية للألم الساكن بداخلي ..! ربما هي وسوسات الأمس التي حفرت اخدودا داخل روحي اعاقتني عن إكمال مسيرتي في الحياة كأي شخص سوي يستطيع ان يصافح الحياة بكف قوي ، الاحلام التي ورثتها عن عائلتي تأبى إلا ان تتحقق وتفرد اجنحتها على واقعي الذي لم اخطط له ، رسمه لي غيري وأنا احذو حذوهم كالأبله احس انني شخص هلامي وليس لي وزن ارتفع في الفراغ الاسود ، تعودت ان اسرف في تخدير مناطق اللاوعي في عقلي وجسدي ولكنها تصحو على حين غرة ممزقة اشلاء روحي تدفعني لأصرخ رافضاَ واقع مستنسخ من الماضي الكئيب ربما هي قصة الخطيئة التي حصرتني بزاوية المألوف والعادات والتقاليد القامعة لكل ما يضج به عقلي وجسدي من اجل ان تكتمل رجولتي ،لا احد يعي مأساة رجل واقع في مأزق الهوية لا يسحب ماضية ويخاف من المستقبل الضبابي ،وماذا بعد هذه التعاسة ؟

اتهم البترول الذي نقلنا من مرحلة الى مرحلة اخرى اكثر تعقيدا متجاوزا مساحة الوعي فينا،انتقلنا من مرحلة تخيّم عليها بساطة الحياة وبساطة العقول ،الى مرحلة محشوة بكل حضارات العالم ونحن نحمل نفس فنيات التفكير وبدائيته التي لم تتطور ..! ماذا بيد رجل مخضرم لم يستطيع ان يتخلص من بساطته ولم يتأقلم مع حاضرة المعقد ولا يستطيع فهمه ..!!

اصبحت مثل سائق الأجره الذي لا يدري الى ماذا ينتهي ،أي سخرية تعبث بمصيري الغامض ، لازلت رجل عالق بين ماضي تجذّر كالشجر ، وحاضر يعصف بي كـ الإعصار ،من وجهة نظر من يقدّس الماضي انا ضائع ، ومن وجهة نظري انا روح قابلة للاشتعال في أي لحظة ،امارس عنوة الرحيل المستمر حتى من ذاتي ، واشتهي الغربة التي ادين لها بحق المواطنة.

اقايض كل شيء حولي لأهدأ ، وحتى لا يدخل احد مناطقي المحمية،ولا يصل الى جذور روحي الملائكية اقفل باب جنتي وأسيجها بأشواك القسوة والكراهية لكل ماحولي ، هكذا احمي نفسي التي تجاوزت في فقدان الامل حد الابتسامة بلا شفتين، على كل حال كل التبريرات والخوض في الماضي لا تبرئني من تهمة العجز الذي احس به ، تباً للسلبية التي مسختني الى كائن بليد متردد ، ادلف الى مقهى بجانب الرصيف الذي تعودت ان اسكنه في لحظات جزعي وخوفي وهروبي من العالم ، جذبتني رائحة القهوة المحمصة ، وثرثرة تتعالي على اصوات الفناجين والصحون ، هنا ينتهي مسائي ويغمض عينيه على ليل عادي جدا.

ثلاثة رجال ونصف !!

كنت قد قطعت الأمل كليا في العثور على ورقة كانت مهمة جداً بالنسبة لي ، وإذا بها تظهر فجأة أمامي وفي مكان لم أتوقعه، مع أني لم أكن فوضوياً، وعدم الترتيب يصيبني بالضيق والتشتت، إلا أنني هذه الأيام أعاني من عدم التركيز، فالتفكير في أبسط الأشياء أصبح عملية شاقة كالصعود إلى أعلى التل، وعصبيتي هي ما يتعبني في التعامل مع الحياة، فأحيانا ينتابني شعور أنني كائن متوحد لا منتمي، ربما سبب عصبيتي هو تلك المرأة التي دخلت حياتي كالماء العذب، كالسحابة المسرعة، وكالنسيم الذي يأتي في غير أوانه فيعطيك شعوراً بالنشوة تتسلل إلى روحك وجميع مفاصلك لا تملك لها إلا الاستسلام، هي رفيقة روح مثالية، جميلة، يقظة وحنونة ومتحدثة لبقة ،وفي بعض المرات أحس بالغيرة منها، وأحيانا عليها، معها أضيع في تفاصيلها وافقد ذاتي، وأنا صاحب الصبر القليل والشخصية المتسلطة، والمعروف عني أنني أنجح في كل أمر أقوم به وذلك لجرأتي لا غير، أمامها أحس أنني شخص آخر لطيف ولين، أنفتح على الحياة معها بطريقة أخرى، تصبح الحياة معها شاسعة ملونة ودافئة، لا أرى إلا جمال الدنيا معها، فبعض الأشخاص يستخرجون أسوأ مافيك وبعضهم يدفعونك لإخراج أجمل ما فيك، أتشرب مشاعرها الرقيقة وثرثرتها الجميلة، وضحكاتها التي تأتيني من أعالي الروح، يا الله أحس بالبعثرة عندما أفكر فيها، أفقد الإحساس بالزمان والمكان، ها هي ساعتي تشير إلى العاشرة مساء واليوم هو يوم اجتماعي بأصدقائي الثلاثة، فموعدنا كل ليلة جمعة من كل أسبوع، نلتقي في ذات المقهى، تفقدت مفاتيحي واتجهت خارج المنزل وركبت سيارتي ، وأنا من النوع الذي يقود سيارته بسرعة لأن السأم ينتابني من جراء روتين الحياة وفوضوية أنظمة السير، فما أن أستقر في سيارتي إلا وإصبعي يتحرك لا شعوريا إلى هاتفي النقال فأدير زر رقمها ويأتيني صوتها كالشلال المتدفق على هضاب روحي، اسمع صوتها فيسكنني الهدوء والطمأنينة، وأنسى كل ما حولي ولا أفيق إلا وأنا أمام المقهى، فأستأذنها الرحيل لأعاود الاتصال بها فور خروجي من المقهى مرة أخرى، يا لها من إدمان، بعدها أحببت اجتماعي بأصدقائي أكثر فهم الوحيدون الذين أستطيع أن أتحدث معهم عن هذه المرأة بكل أريحية، أحس بالمتعة وأنا اقضي ليلي احلل شخصيتها مع أصدقائي، والكل يدلي بدلوه من خلال خبراته الشخصية عن المرأة التي قابلها في حياته، دلفت متأخرا إلى المقهى وسمعت أصواتاً عالية تيقنت أن أصدقائي هناك اجتمعوا على أن يختلفوا، ألقيت عليهم التحية ورميت بنفسي على نفس الكرسي الذي أجلس فيه كل أسبوع، وطلبت مشروبي المفضل عصير الجوافة، وأثناء اعتدالي بجلستي لكزني على خاصرتي حسام وهو يغمز بعينة قائلا: ما سر هذه السعادة المفرطة يا وحيد؟!

رد ماجد هي سعادة هادئة تخبئ تحتها نهرا من الفرح والأشواق، فلا تسألوه عن شيء حتى لا يستهلكنا في الحديث عن فاتنته اللطيفة.

جاء صوت مصعب محملاً بالدفاع عني كالعادة فهو محامٍ بارع لكنه غشاش، واقع طوال الوقت في فخ وظيفته، فهو لا ينجح في حياته عن ذكاء وجدارة بل بالحيل والألاعيب، قال مترافعا عني وكأنه في ساحة محكمة: إن وحيد الماثل أمامكم هو رجل من الطراز العتيق، لا يحمل أي شعار في حياته، غير انه من النوع الذي بلغ ذكاؤه حدا أكبر من الظروف التي ولد فيها، قد يكون مثالياً عنيفاً، ولكني الآن أراه كسحابة مسرعة نحو الشوق، دعوه يعيش لحظاته دون تدخل منا.

- انفعل حسام من تلميحات مصعب بعدم التدخل في شؤون وحيد، فهو يرى أن صداقته تحتم عليه أن يعطي وحيد نصائح من أجل أن يستطيع أن يتعامل مع تلك المرأة، فلربما تكون امرأة كاذبة ومخادعة وإلا ماذا تريد من وحيد وهو لا يمتلك صفات الفارس في نظر أي امرأة، ربما اعتقادات حسام نابعة من الغيرة من وحيد، فحسام شخصية مثقفة يعوزه الانسجام مع مجتمعه، كان شعاره "إذا لم تحب حياتك فباستطاعتك أن تغيرها " فهو يتعامل مع المواضيع اليومية بصورة براقة جذابة.

-تدخل ماجد صاحب الابتسامة المحتشمة، الواقع في عقلانية مفرطة، فهو مهندس مخترع، وكل شيء لدية يجب أن يبنى على حقائق لا تقبل النقض، فهو يعيش صراع مع نفسه الإنسان المثالي والمجتمع المادي الذي يعيش فيه، ولديه رباطة جأش وهدوء يدعوا للامتنان، يمتاز بايجابية أكثر من الموجودين، ولديه تحليل حتى للاشيء، ولكنه من النوع الذي لا يكترث بالسعادة الشخصية، فلا يستطيع الحب أن يعتريه، فلا يوجد قطب موجب ليعيد التوازن أمام السلبية التي يحس بها أمام الحب، فهو لا يملك صورة ذاتية واضحة عن قلبه.

- أطلق حسام تنهيدة طويلة قائلا: نحن في مجتمع يتنافس فيه الجميع، فالكل يفترض أن يكون متعلما، ويحوز على وظيفة مرموقة، ويحقق شرط الانتماء للمجتمع بأن يتزوج وينجب أطفالا، هنا يكون إنساناً سعيداً من وجهة نظر المجتمع، في حين أن هذه الأهداف هي مفروضة علينا من الخارج فهي ليست ما نرغبه فعليا، لذلك أحيانا نقع في الازدواجية، فالشكل الخارجي نحتفظ به من أجل المجتمع، ونتصرف بحشمة بالغة بسبب إحساسنا بالضرورة الأخلاقية والسلوكية التي فرضها علينا المجتمع، في حين أننا من الداخل نكون أشخاصا آخرين،

ونتصرف تصرفات تختلف تماما عما نظهره في الواقع، مجتمع أجبرنا أن لا نكون نحن، فنحن نفتقر للحرية التي تسمح لنا بالارتقاء.

- قاطعه وحيد بعصبيته المعهودة: إن الحرية التي تتحدث عنها هي عالم نُطل عليه من ثقب الباب، نرقبه دون أن نسمح لأنفسنا بالاقتراب منه فنحن تعودنا على الخوف، ونحتاج للتجربة من أجل النضج، إليك مثالا بسيطا على أن ما نرغبه هو ما نظل نمارسه بالخفاء حتى لو كان حقا مشروعا لنا، فأنا أحب امرأة كالمطر نقية شفافة، لم ترغمني على شيء لا أريده، عندما أكون معها أحس بالسعادة والهدوء، يتغير صوتي فأحس برجولتي معها، أحس أنني قادم من زمن الفرسان فمشاعري تجاهها هي فيتامين ضروري لنمو روحي، تأتيني هذه الإنسانة على شكل ملاك وكأن لا شيء يشغلها في هذه الدنيا إلا التحديق بالموجه، ههه نعم أسمتني هذه الأنثى " الموجة " فأنا متقلب ولا أثبت على حالة واحدة، تتحمل مدّي وجزري، تتفهمني من نبرة صوتي، الحياة معها تبدو عزيزة غالية، هي تمتص توتري وتطلقني كالرعد، فعندما تسحب خيوطي تأخذ دُمَى روحي بالرقص، فأظل ذلك الرجل الذي يحلم حلماً متقن البناء فيبعث الرضا بداخله بصورة تتساوى مع المعقول. معها خيالي يصل إلى ما وراء النجاح الاعتيادي، وكأنها تنظر إلي من خلال مرآة سحرية صُممت لتحرير قواي الخلاقة في عقلي الباطن.

- أحس ماجد بانفعالات وحيد وأراد أن يعطيه جرعة من الأمان والفرح قائلا له: هل تذكر رسالة حبيبتك الفاتنة (خذ بيدي)، كانت بمثابة الرمح الذي أغمد في القلب فتلك الرسالة كانت بمثابة نوع من أنواع التجربة النفسية لك، فلدينا اعتقاد نحن البشر أن قوى العقل أوسع مما نفترضه عادة.

- اكتسى وجه وحيد بالجدية تماما، وأسند كتفه إلى الكرسي وكأنه دخل في غيبوبة صاحية، راح يتذكر كيف كانت بداية معرفته بها وضع يديه على جبينه وانطلق بالحديث كالسهم قائلا: كنت آنذاك في الرابعة والثلاثين من عمري، كان ضياء الصباح قد امتد نحو الأرض، أبحث عن مدينة ليسكن بها قلبي، وكعادتنا نحن الرجال لا نعترف بالاحتياج للأنثى، ولا نحس بقيمتها إلا عند رحيلها، نحن الرجال الشرقيين نعاني من ازدواجية بلغت حد السماء، المرأة لا تعني لي إلا شيئاً واحدا.. لم أستطعْ تجاوز نظرتي لها..

لم يعلمني احد في طفولتي كيف أتعامل مع المرأة، كيف أحترمها، أعترف أنني لا أحترمها، أنظر لها كأداة للمتعة لا أكثر ولا أقل، وعندما تقترب مني امرأة، حتى لو كان الأمر يخص العمل، لا أستطيع أن أفصل بين تفكيري فيها بأنها متعه أو إنسان كامل ، رؤاي مختلطة حول المرأة مع أنني أتظاهر باحترامي لها أمام

الناس حتى أثبت لها أنني رجل متحضر، وأنا في قرارة نفسي أحتقرها ولا أحترمها، فهي شيء ثانوي لا تقوم عليه الحياة، كذلك كنت أتعامل مع أختي وأمي لا أرضى أن يطلع عليهما أحد، ولا أن يكلمهما رجل، فباعتقادي أن أي رجل ينظر إليها مثلما أنا أنظر إليهما: أنهما فقط متعة مخلوقة لترفه عنا، ونستطيع أن نتخلص منها وقتما نشاء، كذلك فعلت مع ثلاث نساء التقيتهن في حياتي، لم يكن شريرات، فمطلب كل واحدة منهن عادل، للأسف نحن الرجال نتصور أن المرأة عندما تندلق مشاعرها لرجل واحد ننظر لها بأنها غبية وحالمة وليست جادة في الحياة، أو بكلمة أكثر وضوحا أنها (ناقصة) فيتعزز شعور الذكورة والفحولة بداخلنا، ونستكثر عليهن حتى السلام، وإن طلَبت الزواج هربت بكل بشاعة لتصوري أنني شيء صعب الحصول عليه، فانا لا أتزوج واحدة عرفتها من خلال الهاتف أو العمل يخيل إلي أنها تعرفت إلى العشرات قبلي فاحتقرها أكثر، وأنا الذي من الأساس لا أحترمها، وفي الحقيقة أنا اعكس كل تصرفاتي وسلوكي.. هي إسقاطات نفسية تلوثت بها بداية من التربية التي ظلمتْ المرأة وصيرتْها من ضمن الممتلكات التي يمتلكها الرجل، إلى الفتاوى الدينية التي تقف بجانب الرجل دائما وتعطيه القوامة والتعددية بشكل مطلق، مروراً بثقافة العيب الاجتماعي التي تجرّم الاحتكاك بالمرأة والثقة بها، أحس أنني ضائع بيني وبين نفسي، بعد أن تعرفت على هذه (الفاتنة) بدأ عقلي يفكر بكهنوت المرأة، ما هذا الكائن الغريب الأطوار، القوي الإرادة، الممعن في الصبر.

أحاول إزاحة ضبابية التعريف لها فلدي إرث عظيم يشكو من دونية المرأة. هي لم تكن ناقصة قط، ولم تكن تلك التافهة الخيالية بل كانت عملية تحسب حساباتها أكثر من الرجل، فلو تأملت في النساء لوجدت أن بعضهن تقيس الرجل بميزان جيبه ومدخراته فهي الضمان لها، تذكر قصة شجرة الدر وكيلوباترا وقاتلة السلاطين كلهن كنّ قويات، نعم كنت أحسب هذه القصص حالات فردية ولكن المرأة هي المرأة لا تتجزأ، حتى في عالم الحيوانات والطيور الأنثى دائما هي القوية، نعم اتضحت لي الصورة الآن وهذه الفاتنة هي نموذج جدّ جميل للمرأة ولكن.. رنّ هاتفه الخلوي وإذا بها إحدى صديقاته السابقات أخذ منها موعداً لمقابلتها غداً.. !

استنكر ماجد المكالمة المجهولة التي استقبلها وحيد ،فقد لمح شيئا يتقاتل داخل عينيه التي انطفأ بريقهما فجأة ،اقترب ماجد من وحيد قائلا له : تعودت ان اقرأ عينيك التي تفضحان خلجات قلبك. ربما كنت يا عزيزي تمثل قلبي الهارب من جسدي ، لذلك لا احاول السخرية ابدا من مشاعرك، فأنت غالبا ما تملا رئتاي بحكاياتك الرطبة والمندلقه رقة ، لذلك تجدني اتوغل في اعماقك دون غيرك من

الاصدقاء ، يحتاج المرء احياناً الى التحرر من قيود البشر ، والدخول في علاقات متعددة هي احد صور التحرر وكسر القوانين ، ولكنك تحتاج الى قلب مثقوب كل ما تدس بداخلة مشاعر لا تجدها مرة اخرى ، لذلك لا تثقله آثام الحب ،ربما يوما ما ستتصالح خطوط طول قلبي ومع دوائر عرض المشاعر.

جاء صوت حسام مليئا بالنعاس قائلا : أما واني قدر مشاعري ان تظل قاسية ،انانية تشبهني فهي حِملاً عليّ ينبغي ان اعبث بها حد ان اتبرأ منها ، او ان احرقها واضع رمادها في زجاجة ثم انثرها فوق جبل ، ليتني يا رفاق استطيع ان اتعامل مع نفسي بحب ، ذات صيف وضعت يدي على كتف امي فتوازن العالم بداخلي ، رغم القهر الساكن في وجهها إلا انني احسست وكان عصافير الكون تنطلق من صدري ، فقد وجدت اعشاب الطمأنينة تستوطن كتفها ،ربما لاني كنت اتبع قواعد الحياة التي غالبا لا تتفق مع المنطق .!

تَحلّق الأصدقاء حول بعضهم بحميمية غير معهودة وكأنهم يبحثون عن اليقين ولو على مرافئ بلد آخر ، ربما هي الجروح التي نُكِأت بدون قصد ، وبحثهم عن سر نكهة الحياة التي اخذت طعم الماء.

عَلى ضفَةِ التِيمزْ!!

لطالما عَشقتُ نهر التيمز بشكله الأفعواني الذي يشطر مدينة لندن إلى نصفين كسهم كيوبيد الذي شطر قلبي ذات غروب هناك، ربما ارتبط حبي لذاك النهر لان تفاصيله تشبهني، طويل كقطار أفكاري، جميل كذكرى مختزلة تطفو بين الحين والآخر إلى عقلي مخلّفة رائحة زكية بحضورها السريع، وقفت على ضفة التيمز ذات غروب، أرتدي معطف بلون زهرة دوار الشمس، وشعري معقوص تحت قبعة من القش تغطي أكثره، كانت محاولة مني لإقالة الأفكار من رأسي المشوّش حد الضبابية، وكان هو يتكئ على جدار قصير وقد أخفى عيناه تحت نظارة سوداء سميكة، يرتدي قميص رمادي خفيف بدون ربطة عنق رغم برودة الجو، ويحمل بين أصابعه المرتعشة سيجار سُحب منه روح الحياة، وبوجه بلا حياة أو كما يسمى وجه البوكر Pooker face بادرني بسؤال أسرع من الضوء هل تعتقدين أيتها الزهرة البريّة بوجود أرواح متطايرة حولنا؟ أرواح أجسادها اندثرت وغاب نبضها طويلا!! دُهشت من هذا السؤال غير الرومانسي والذي أعاد ذهني إلى حالة فوضاه السابقة القلقة، راقني وأربكني السؤال بنفس الوقت إلا أنني تظاهرت بأنني غير مهتمة للدخول

فـــي نقـــاش مـــع هـــذا الغريـــب المُريـــب، وصـــوتي الـــداخلي يعلـــو علـــى ملامحـــي التـــي أخفيتهـــا تحـــت جليـــد بـــرود مبـــالغ فيـــه، كـــان ســـهل علـــي قـــول كلمـــة "لا" فالغايـــة منهـــا هـــو الوصـــول لجـــواب نهـــائي قـــاطع، ولكـــن كـــم أحتـــاج مـــن الـــدقائق لأقـــول لا فأنـــا لا أجيـــد ثقافـــة وضـــع النهايـــات أو ربمـــا كنـــت أخـــاف منهـــا، وقـــد يكـــون هـــذا الرجـــل قـــد حـــرك شـــيئاً ســـاكناً بـــداخلي، أعـــادني إلـــى ذكـــرى مـــا كنـــت أرغـــب بهـــا، خلـــع نظارتـــه الســـميكة ووجـــه لـــي نظـــرة حـــادة تحمـــل كثيـــراً مـــن التحـــدي ممزوجـــة بقليـــل مـــن انتصـــار، لـــم أفهـــم رغبتـــه المُلحـــة لخـــوض نقـــاش فـــي موضـــوع تـــرتطم حـــدوده بالـــدين والاعتقـــاد والثقافـــة، ابتســـمتُ نِصـــف ابتســـامة تنبـــئ عـــن هـــدوء يســـبق عاصـــفة، رددت علـــى ســـؤاله بســـؤال شـــبيه بـــه: وهـــل تعتقـــد أن الأرواح تَتَلبسُـــنا؟ هنـــا أجبتـــه أجابـــه ضـــمنية بـــأنني أؤمـــن بـــالأرواح المتطـــايرة كـــالريح والتـــي تتطفـــل علينـــا، تُخيفنـــا، تُرهبنـــا، وتتركنـــا مشـــرعي الأبـــواب وبحّـــةُ مـــن خـــوفٍ تهزنـــا مـــن الـــداخل، أطبـــق يديـــه بحركـــات ســـريعة وكأنـــه يريـــد إشـــعال جمـــر الحـــوار، واســـتدار ناحيـــة مركـــب شـــراعي قـــادم مـــن بعيـــد وكأنـــه يحمـــل بشـــائر ربيـــع قلـــب مُصـــفّر، وبدِقَـــة صـــيّاد ممعـــن فـــي المهـــارة، ركـــل ناحيـــة النهـــر حجـــراَ صـــغيراً كـــان تحـــت قدمـــه قـــائلاً لـــي، إن كـــل مـــن يـــؤمن بوجـــود الأرواح هـــو شـــخص باحـــث عـــن شـــيء يرسّـــخ قناعاتـــه عـــن المجهـــول، يســـكب كـــل المجهـــول بروحـــه ويهـــب نفـــس شـــفافة

مغموسة بنغم التحدي فيصبح مثل طائر الكنار يغرد حول فنن التساؤل والدهشة!

في أثناء حديثة غشتني نبوءة عن رجل يعشق الصهيل في مضمار الحياة كخيل جامح لا يستطيع أن يلجمه إلا أفق المستحيل، وفي صقيع الغياب

يعزف على ناي القلب كلمات دافئة فيفيق بكل خجل كنجمة أسدلت شعاعها عند المغيب، ويستطرد بكل ثقة ممزوجة برجولة تشفي ما انكسر من صور رجال حلوا ورحلوا في حياتي، لم أستطعْ استحضار ممحاة لمحو صورة ذلك الغزير الرجولة الموفور الذكاء، إلا أن صوت داخلي خفيف كالمطر يهمس لقلبي هو لازال هناك يحاول كسر باب الحب الموصد، الذي أوصدته العادات الاجتماعية وقانون العيب في وجه المشاعر المتشرنقة داخل الروح، صحوت من يقظتي على صوت ذاك المدعي وهو يدندن بأغنية انجليزية متقطعة الكلمات خيل إلي أنها أغنية:

Brothers Under The Sun (Bryan Adams)، (اخوة تحت الشمس) ويلوح لي بكفه المعروقة مستفهما عن سبب شرودي، وعيناه تتنازعان نظراتٍ فيها كثير من الشك والسخرية، وهو يقول ألا تتفقي معي أن الغوص في بحر التفكير هو حل

للهـروب مـن المشـاكل التـي مـرت بنـا، قـد نفكـر بعمـق، وقـد نسـير فقـط فـي طرقـات التفكيـر، نحـن لا نبحـث عـن إجابـة لهمومنـا ومعضـلاتنا ولكننـا نبحـث عمـا يمسـح الـذاكرة بمعنـى أن الـذاكرة كالماسـح الضـوئي، فقـط ينسـخ مـا نريـد بدقـة متناهيـة ثـم يخرجـه لنـا إخراجـاً يتفـق مـع ذوق صـاحبه، فهنـاك مـن يحمـل معـه ذاكـرة ملونـة، وهنـاك مَن ذاكرته تجمع الضدين الأبيض والأسود!

انتابهـا قليـل مـن الضـيق مـن هـذا الحـوار الـذي لـم يزدْهـا إلا تشويشـا حيـث أطبقـت علـى معطفهـا الأصـفر بكـل يـديها وكأنهـا تحـاول إغلاقـه علـى مـا يحملـه قلبهـا مـن معتقـدات قـد تكـون كالخرافـات بالنسـبة لهـذا الشـرير المـاكر! ولكنهـا مـا لبثـت أن اسـتجمعت قواهـا وسـألته وهـي تحـاول الـتخلص مـن شـالها المزخـرف بكـل زهـور الـدنيا وهـي تتمـتم مـا أبشـع الحكمـة عنـدما تـأتي مـن غيـر أهلهـا، ورمـت بشـالها إلـى النهـر فأطلقـت تنهيـدة تحمـل كثيـراً مـن الارتيـاح وكأنهـا تخلصـت مـن شـيء كـان يخنقهـا ويمنعهـا مـن الاسترسـال بـالكلام، واسـتدارت ناحيـة ذاك الرجـل صـاحب الأسـئلة المزعجـة قائلـة لـه:هل تقبـل بالصمت جوابا لهكذا كلمات؟

-عذابات وحُمى فاترة

منذ سنة عرفت رجل عجوز كان يعيش عذابات المرض ، يَخالُ ان نهايته على يد هذا المرض التعيس الذي قضى على نصف رئته اليسرى ، والسعال المتواصل الذي يحرمه من لذة النوم ،وثقل في حركة جسده ، وعندما يتحدث تحسبه يحتضر من صعوبة تنفسه ، شعوره بالكآبة والمرض الذي جر كل احزانه وخزّنها بجسده ، جعله موقن بأهمية الموت على ان يعيش عالة على احد.

امنيته الوحيدة هي ان يستمع له الآخرون وضعته امام ابشع بؤس عرفه في حياته، فالشيخوخة التي يحس بها وتتضاعف آلامها نتيجة الاقصاء والانزواء والقرب من الموت ماهي إلا احد المصائب التي حلت به بعد امتلاء جسده بأصناف العجز ،يراقب شبابا يلعبون فلا يحق له اللعب معهم ، وآخرون يضحكون ويتمازحون فلا يستطيع ان يشاركهم المرح. شيخ وحيد لا يميز إلا صوت صرير مزلاج غرفته ،و صدى سعاله ، وكرسيه الذي يكاد ينكسر من شده ما يحركه .في سن السبعين تكتشف انك لا تستطيع ان ترجع ولا تتقدم لتموت ،لم تعد انسان كامل يسحقك هذا الشعور من الوريد للوريد ،احساس لا تستطيع التعامل معه او الخلاص منه،تتخيل نهايتك التي ربما تكون جليلة ودرامية مبكية ، هل ستموت بهدوء سنبلة ، ام مسحوق العاطفة بعد ان سحق الزمن جسدك ،وحياتك السابقه تركض على جبينك ، كان يهيأ نفسه طوال حياته لهذا العمر ، أمّن نفسه ماديا ، ولكنه لم يستطيع أن يحمي نفسه من وحش الوحدة ، وعندما اكتشف خساراته المُرة حينما يكون اقصى امنيه هي الآخر الذي يهرب منك وينساك في بئر الحرمان ، والاحتياج لوجود الآخر والأنس به هو محور تفكير هذا العجوز السبعيني فرغبته بالجماعة فاقت رغبات الشباب .

استقر على سريرة وكأنه شجرة منتصب يابس صلب يفكر بالعمر الذي لا يقهره إلا العمر نفسه ، ي الله يبدو ان الليل رحل فهاهو نور الصباح اليوم يبدو اكثر فخامة من ذي قبل ، ومع كل اشراقة شمس تتعامد روحي على منحنى الوحدة الصفراء كاللهب . بسمة الشمس الفاترة اراها جلية وبكل وضوح ، تتجلى عظمة الله بمنحنا شيئا نحبه ، ولكني لم اعد احب أي شيء ، وليس لي رغبة في الحياة ، العزوف عن الحياة اشبه ما تكون بحفل جميل ولكنه صاخب جدا ، تحاول ان تحمي اذنيك من اصوات كأنها اللهب تلسع مسامعك فتلجأ الى مكان قصي في نهاية الممر لتجلس وحيدا وتتفرج على الحضور .

الساعات الحزينة التي قضيتها في شبابي لا تعدل ولا معشار هذا الكم الهائل من الحزن الذي احس به الآن ،قيل لي ذات مرة من احد الاطباء المتمرسين في الطب وكأنه يملك مفاتيح الحياة والموت (انك لن تعيش طويلاَ) واني لأذكر الطريقة التي قيلت لي فيها ، ما ابشع البشر عندما يتخيلون انهم بمعزل عما يحدث للاخرون الذين لا يشبهونهم ، في شبابي طاردني الخوف من الفشل ، ولكني كنت رجلا جبارا لا يقهره شيء، قلبي كان اقسى من الحجر وكنت اسخر من كل من تغلف قلبه العاطفة، وأي رجل عطوف في نظري هو مشروع رجل فاشل ،القسوة في قاموسي هي مترادفة القوه والقوه هي عصاي التي اتكئ عليها وأهش بها غدر الايام ، لم اكن اتوقع ان تركض الايام برشاقة الغزال واكبر وأصبح بهذا الضعف القميء شعور جارح جدا الوهن بعد القوة و لازلت كالصندوق المقفل لم استطيع ان اتحرر من نفسي وكبريائي الطاغي إلا ان الهرم كسر اسطورة الجبروت والقوة بداخلي ،والقسوة هي كالشوكة المغروسة داخل قلبي كلما تحركت انغرزت بقلبي اكثر فلا استطيع انتزاعها ولا اتحمل تركها اعاقتني من رؤية الحياة التي يقولون عنها انها جميلة. وكلما كبرت الايام كبرت مساحة القسوة د اخل قلبي حتى تفحم قلبي لم يعد لي قلب محب،الغريب انني لا ارغب بالحب ؟

عندما تقطب الحياة حاجبيها في وجهك اقرأ على نفسك السلام فقد اكتشفت متأخراَ ان صراعاتي لم تكن مع القوة او المال او حتى البشر ، بل كانت مع الحياة التي امتصت كل شيء بداخلي وهاهي تسحب مني عصب البقاء ، هي كالغول الذي لا يشم إلا رائحة الضعف والبؤس والحزن ، والخوف الذي هو اول سمة من سمات الضعف ،ربما هي بداية للتعرف على نفسي ، حاولت ان اقترب مني فانبعثت من روحي رائحة كرائحة بيت اغلقت لمدة طويلة وفتحت ابوابها وقت المطر ،ان للوحدة وجعها ، ولكنه وجع يغطي كل شيء ،لا اعلم لماذا لا يتجاوز احساسي بالآخر درجة الوجود العادي ربما لأنني طوال عمري كنت مشغولا بنفسي وأنانيتي المفرطة هي التي اخذتني داخل نفسي وأوصدت علي الابواب.

استغرب من قواعد الحياة ونظامها العجيب الذي لا يتعامل بالمنطق غالبا..! وهذا العالم المتسارع والمتراكض خلف نفسه بحركة بهلوانية وكأنها تخرج لسانها لنا بكل استهتار قائلة : ما انتم فاعلون يا بشر؟

اين اجد اليقين بعد ان قضيت عمري ابحث عنه ، وهل من العدالة ان اصاب بكل هذه الامراض اللعينة ...؟

لأول مرة احاول استحضار وجه ابي المتسامح ، على الرغم من انه توفي منذ ثلاثين عاما بحادث سير إلا انني لم انسى ملاحمه المتآلفة مع نفسه ومع الحياة ، كان رجل وحيد وكثير الضحك والكل يحبه ، هناك فرق بين ملامحي المتجهمة العابسة دوما وملامحه مع انه ابي ، كنت اعتبر الجمود جدية ولكني عرفت انني كنت اكبت ملامح الانسان الفطري بداخلي ،ولكني لازلت امارس عادتي في رفض كل من يحاول استنطاق مشاعري من الداخل ، ولازال رأسي المجبول على الصراعات العنيدة يحن للماضي الغير سعيد أوحشتني نار الليل العذبة ، وجدران المنزل تحبسني من مشاركة الجمادات الغناء والاحتفال بزينة الأرض العروس، وضعت مساحة وفرصة لكل فكرة عابسة لتدمر اجمل مالدي، لم استمتع بحب الناس وضحكات الاطفال ،ولم احب زوجتي يوما ، ماتت وانا اكن لها كره عظيم ، لم اتوقع ان اكون بهذا السوء ولكن بعض الاشخاص يستخرجون اسوأ ما فيك.
لم اكن كغيري ممن يبحثون عن الامل الذي يأتي من شرفة الحياة،لست ادري هل هي أرواح ساحرة تدور حولي أم خيال سماوي تملّك فؤادي وعكس على كل ما حولي من الأشياء نضارة وحسن وجمال ، ينبجس هنا ينبوع عذب بت مفتوناً به ،لأول مرة افتح عيني لتنال نصيبا من حلاوة وجمال الحياة، ولكن بعد ماذا ؟ بعد ان زمتّ الحياة شفتيها لي ، وأدارت ظهرها عني ، وهاهي تستعد للرحيل.

شيء من شعوذات الشتاء

عذرا حبيبي
إن أتيت بدون أزهاري
لألقي بعض أحزاني لديك (فاروق جويده)

للصباح نبوءة سكر تجهلها قهوتك يا نبيلة الحضور وعندما يكون الحب عفويا لا ينتظر أن نزخرف الحياة لـ استقباله.أحاول أن اشرح لكِ بكل المفردات التي لا تزرع النكوص،أنا آدم الغادر،وشهريار المتغطرس ، والسندباد الذي أضاع بساطة السحري، انا هو الرجل الملعون، والإنسان المقهور والمهموم وأمنياته المصادرة وبحثه الدائم عن الحب والهوية والانتماء ، أتمعن في الزمن فأجده يتجمد كالحجارة لا يجد ما يلينه، أعماقه ضبابية ، ووجعه لا يشبع ، أحيانا في كوني القصيّ يا امرأة تُصبح الكِتابة إليكَ قاسية، صَلبة ،صَعبة ، وتحت جمر مشاعري السارحة تجاه الريح أطير ممتطيا تنين الغربة لأتحدى هذه الصعوبة التي تحصرني بين زواياها القاتمة لتمنعني من الكتابة اليك فاتحول الى ماموث. لا أعلم لماذا استرسلُ في عنجهيتي فقلبي الشقيّ لم أستطيع ان اروضه ،تنهمر موسيقى مزعجة حد الجنون تحمل ألوانا سبعة تأبي الانصياع للمألوف إلى اللامألوف، بالرغم من الموجات العاصفة التي تجتاحنا إلا أننا غالبا ما نقفز عائدين إلى محورنا الساكن لنتوازن مع مكنونات الحياة ، وخارج دورة الكرة الأرضية التقيتك شدني اختلافك عن غيرك من النساء،بطبيعتي العفوية رغبت أن أهديك وردة بيضاء إزاء مشاعري التي لأول مرة تصبح دافئة دبقة كقطرات العسل ،بعدها أورقت زهراتك في ردهات عيني ، وبعبق الحقول وشجن النايات تنفستك لغة مختلفة ،وانشطرت من أصابعي فراشات ملونة،تعلمين ان توقيت المشاعر بيننا لم يكن طويلا ، والأكيد أن أرواحنا انزلقت مع بعضها بسرعة النبض ، وقد أقسمت ذات خريف اصفر أن أحببت امرأة سوف اخترق ضباب قلبها ، وأغير مفاهيمها ،وسوف اكسب جمهور قلبها، فـأنا هارب من قطيع النجوم ، إلى دهشة قمر لازالت فراشاته تلاحق شمسي، وفي صباحكِ العسلي العينين اقرأيني حرفاَ او احسي بي كالدهشة ، هنا انا شجاعا على الورق كعنترة ،ويا لكثرة ما كتبت من رسائل عشق الى امرأة مجهولة ولكني اعرفها في قرارة نفسي ، هنا اكتبكِ واكتب اليكِ:

اليك قلبُ اختل نبضه بك

السيدة (م م)

اسهر لأحمي قلب الليل من غدر القمر،

ازرع الوقت حبات عنب وكرز احمر،

ها أنتِ تتمادين بالسريان داخلي كالماء العذب ، تنسكبين

في ارض قلبي فتنمو ورود من عشق ،،عروقي التي

تأخذ لون خضرة الشجر احيانا امتلأت بك حد الإدمان،

أحيانا ارغب أن أقول لكِ توقفي فليس لي إلا قلب واحد اهش به عن

احلامي،قلبي ينفث الأمنيات معكِ كالدخان ، وعقلي يفسح مكاناً لتجلس

به رسائلكِ الحنونة، فأهندم رداء مشاعري وألوذ بالفرح ، يالك من سيدة

باذخة الجمال، وفارهة الإحساس ،،،نحن الذين ولدنا في بلدين مختلفين

، وتشربنا ثقافتين مختلفتين، نحن الذين أهدرنا عمرنا بعدم اللقاء ،

لنلتقي ونحن نحمل هم المدينة ، همّ الريح ،وهمّ الوردات العاشقات،

ورغم الحواجز والمسافات لا اتخذ من دونكِ بديلاً،،،

فأعاقبك بلمسات العشق حين تخرّ من جنبات القلب المنزوع من الشوق.

تعلمين أننا لم نلتقي عبثا بل التقينا قدرا وحده الله جل جلالة يخط نهايتنا،

أنتِ المرأة الوحيدة الذي الجأ إليها بكل ثقة ، لم يحركني سواكِ،

شيء من الاكتمال والبوح فيك يشبه غربة مغمضة العينين الملتاعه فقد وحنين،

هذه المشاعر التي أودعها الرب داخلنا لولاها لكانت الدنيا جحيما اصفر، ومن

صباح الرياض البعيد الوح بتحية ملؤها الحب وعبق الأمنيات لأقتص لقلبي من

فيض فقدك ،فقد بدت حياتي بشكل أجمل حينما اتيتِ ونثرتيها على صدري،

وحدكِ من يؤسس لقلب يجمع شتات الروح تحت سنديانه الوله ، ،، هل اشكر

صباحا جمعني بك ، ام هاتفا وصلني بصوتك المسكون بأعشاب السكينة .

حرر في / الليلة الأولى قبل منتصف الجرح

وكعادته بعد ان انتهى من كتابتة رسالتة ، يعيد قرائتها وهو يلحن كلماتها بطريقة خاصة ، فتنحفر جيدا وبسهولة في ذاكرته ، ثم يمزقها ويرفعها عاليا لتتطاير ، ويذهب للنوم .

شـــتات

لم أتوقع يوما أن يكون ابني ريّان الذي نشأ في بيت غير ذي حب ، أن يصبح عذب اللفظ ، حلو الحديث ،وكأنك تستمع الى معزوفة موسيقية للموسيقار الروسي تشايكوفسكي المعبئة بأصناف الجمال والرقة والانسيابية حين يتحدث اليك ،وبالرغم من القضايا المعقدة التي يشرحها ويناقشها مع اصدقائه ووالدته ومعي احيانا ، إلا انه يظل محتفظا بطراوة حديثة ، ورقة الفاظه. جاءني ريّان مسرعا ذات فرح ، وجثا على ركبتيه تحت اقدامي وازرار قميصه البيج مفتوحة بشكل فوضوي على غير عادته المنظمة،،وهو يفرك يديه قائلا لي : تحمل هذه الليلة يا والدي ضجيج طبول افريقية ، وفي اقبالة الربيع تعلم ان ذهني يتفتح على أسئلة بلا أجوبه ، ومشاعر بلا أقنعة ، وصدق ليس مزيف ، بعض المشاعر تسحب مني عصب السكينة وتلقي بي في بئر العمق،اليوم تحدد مصيري بعد ان استلمت بيدي تذكرة سفري الى المانيا ، هي نافذة العبور للعالم ألآخر صُدِمت من المفاجأة التي اتت بوقت غير أوانها تمتمت بيني وبين نفسي ..تبا اعلم انه سيسافر للدراسة ولكني لم اتوقع ان يحدث كل شيء بسرعة النبض ...حاولت ان احتفظ بهدوء مزيف وكأن الامر عادي وتذكرت مقولة جبران " المحبة لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق ". احسست بدوار يلفني وتمنيت ان يكون هذا الخبر كخرافات التلمود الزاخرة بالسحر والشعوذة والتنجيم ، وكالأرواح الشريرة والشياطين والجنيات التي يعتقد اليهود انها من ذرية آدم ، قطع تفكيري صوت ريّان والكلام يتساقط منه رطبا جنياً قائلا : انصت اليّ.. لا تقاطعني ،،ولا تقترب ،،انحني قليلا إلى الأمام و ركز معي: سوف تتغير روحي التي ضلت ما بين بدائية جمع وضرب وطرح الحياة الى تقنية تفاضلها وتكاملها، تعلم اني لا أحب أن أعيش بتراتيبية وكآبة البشر الغارقين بالشهوات، انت الوحيد يا ابي الذي يعرف عني كل شيء لدرجة لا يوجد ما يعصمني من الخطأ إلا وسبرت اغواره ،عفويتي سرقتني من أشياء كثيرة في الحياة ،وقلبي مترف بالمعرفة كأحلام الصبايا،لا أريد أن أصحو ذات صباح وقد نسخت حشرة قميئة الكل يخافها ويبتعد عنها،ولطالما كنت شغوفا بالقراءة والعلم وكنت ابحث بين تفاصيل الوجوه عمن يجادلني بعناية ويشبع عقلي الصغير المتطلع إلى الحقيقة دائما ، عاهدت نفسي أن أكون منصفا وأتعايش بسلام مع نفسي ومع الآخرين ، أحببت الاختلاط بالناس وساقني القدر وأنا الذي يحمل نصفه من أخوال متشددين ، إلى أعمام أكثر شدة وأسرتي انت وأمي تتأرجحون ما بين البين ، حملت مفاهيم كثير مغلوطة عن الدين نتيجة التربية والفهم الخاطئ ، ومن ضمنها عداء من يخالفني ، ولكن ما أجمل هشاشة القلب مع الاستنارة تجعلك إنسانا مختلفا رحب النفس تتسامى فوق التفاهات ، والأيام التي كبرت جعلتني أكثر صلابة وأعمق هشاشة ،هي حياتي كلها تتمحور حول ماذا ولماذا ، عن قيود الدين التي كبلونا بها ، و المرأة التي خوفونا منها ، كبرت وبحثت قرأت وسألت فوجدت امي أنثى نقية لا تنتظرها نارهم المزعومة ، خرجت من هذه المفاهيم إلى مفاهيم أكثر انشراحا ودقة ، ومابين فكرة وضحاها

كنت أتنقل بين مذهب وآخر لعلي أجد للأنثى عرشا يكرمها غير مذهبنا المختوم بعلامة صح كبيرة ولا يقبل التساؤل او التغيير ، ويدي المرتجفة تحاول نفض ذرات التساؤل مثل فلاح يحاول نثر البذور في التراب أشبهني بصخرة تطفو فوق نهر جاري تياره يجرف كل ما يمر به حيث تتشابك أصوات الارتطام وأصوات تيار الماء بشدة، عَليكَ اللّومُ أيها الوجع الذي يشطر قلبي إلى نصفين نصف مع الحقيقة والنصف الآخر مع الأهواء، لا عليك يا ابي اعتدل في جلستك فالقادم ليس اهم من المهم :

كنت اقول يا روح ريّان الضالة..غادري بلا رجعة وارحمي نفسك من جحيم حطّ عليك ، وتمزق ينهشك حية ،ليت عقلي يأخذ إجازة من السؤال ،لم أكن مهيأ لتجرع حقيقة الاختلاف في الحياة فلم أتخلص حتى الآن من التفكير الأحادي النظرة ،ولكني اعلم أن هناك شروق لشمس قلبي في هذا العالم .

في يوم مشرق العينين ساقت الاقدار لي رجال مستنيرين أحببتهم لاختلافهم عمن حولي ، لازالوا أصدقائي ولكن عندما نتحدث عن اختلاف مذاهبنا الدينية اشعر بحرج و لا ادخل في هذا الموضوع ليقيني ان حجتي قاصرة قليلا مع اقتناعي بعدم جدوى ما يفعلون .. كنت أقول لهم تبا للتاريخ الذي شطرنا إلى نصفين تعالوا لنتعالى فوق سخامة ، إلا أنني لازلت مقتنعا بالاختلاف .. كيف لي أن لا أفكر بصدق ما يفعلون .. ومن منا الصحيح و من منا الخطأ استمع لهم فاجد عذب الكلام من خطابة ومنطق وفلسفة وجمال،، كيف لي أن لا افكر بحقهم بالعيش ؟ كيف لي ان لا احبهم وهم من يتفقدني كل يوم ، وكيف لي أن اقنع نفسي بسلامة النوايا ،تعلم أن مجتمعنا الاسمنتي ، جدا صعب فبيننا ونحن اقرباء اختلافات وجفاء وإقصاء ، وعندما أتحدث عن الاختلاف المذهبي بقلب فاقع البياض أحارب وكأنني عدو يتربص بهم .. .!

ارشدني بالله عليك أبتي .. كيف لي أن أكون طبيعيا وأنا أعيش مظاهر الازدواج ، عاجز يا أبي ولا اتمتع بـ جرأة لأكسر تابو الاعتراف بالمذهبية ، وبحق من يختلف مذهبه عن مذهبي كبشر ماذا افعل بحبي لأصدقائي المختلفين عني فكرا ومذهبا، فانا أجد عقليات على مستوى عالي من التفكير والتنظيم والثقافة ، اعلم أن هذا حال الأقليات في كل مكان إلا أنني أريد منكِ يا سيدي الحكيم أن تشرح لي ما معنى ان يكون الانسان لا انسان في بلد لا يكفل حرية الاختلاف... اعتبرني تلميذ في صفوفه الأولى.

رجل لم يكتمل نموه

في سنوات قائظة من عمري قرأت بعض عناوين الروايات التي تظل معنا ولا نملك لها فكاكا تؤثر في ذوقنا سنوات طوال كالتعويذة التي تعلق على صدور الأطفال أو الحجاب الذي يوضع تحت مخدة اللاوعي فينا،ليحجب عنا حسد الأحلام، في البدء كانت الحكاية التي تطفو على بحيرة الوجع، طفلاً يتعشق طهر العابدين في مساجد المدينة ، هو عاشق للمسافات الطويلة ، يرجو مغفرة البقاء في مكان واحد ولو لأسبوع ، عقلة الأبيض والمليء بألوان قزحية كفقاعات الصابون التي ينفخها الأطفال للعب تكون مدورة وقزحية،تنتفخ ثم ترتفع فتنفجر فيضحك الأطفال الطيبين السعداء، لم يكن عقله تشوه حتى الآن ولم يتشرب هم الحياة ، عشق الأطفال لمنابع الخير هي خصلة أصيلة في نفوسهم ، لازال يلعب بطائرات ورقية وبألعابه الالكترونية ، الألعاب الالكترونية جعلته رجلا بطلا بانتصاراته الوهمية على خصومة ، طفولته أكلها اليتم و تكنولوجيا اخترقت عقلة، حيث يمضي الساعات الطوال باللعب حتى يخاتله النوم فيتكئ على جنبه الأيسر مستسلما كملاك يقطر براءة ، في سنين طفولته الأول اغرم بطفلة التهمت قلبه وكان يكتب على طاولته في المدرسة عبارات وفاء مقسما لها انه سيقتله الوفاء دونها ، غرامة وتقليده لشخصيات الكرتون تدفعه لان يكون رجلا قبل أوانه، كانت جل أمنياته الركض خلف أحلامه البعيدة كالنجوم يركض ويركض ولا شيء يتحصل عليه.
الطفولة هي مثل اللوح المحفوظ بالنقاء ، لا شيء يضاهي الطفولة إلا الطفولة ذاتها ، هي مرحلة دهشة تخط جبين البراءة ، وكل طفل يحمل قلبا ابيض من الثلج ، وعينان لا ترى إلا ماهو جميل وممتع ، هي سذاجة من طراز أنيق ، الأطفال يعشقون كل الوجوه جملة وتفصيلا ودموعهم تنهمر غربة في كل لحظة لا يتحصلون فيها على مرادهم ، وآما لحظات اقتراف الحماقات يلوذون بفرح غامر، وتناقضات جوهرية ، فعقولهم خالية من كولسترول الفزاعات الفكرية التي ينادي بها الكبار، الطفولة كالمدن الساحلية رطبة ، جلية، ودافئة، وتنبض جمال ، هي ليست عظيمة بشكل يدهش الكبار ، ولا فاتنة للحد الذي يدفعهم لتمني أيام الطفولة بكل مافيها ، ومع كل رغبة طفولية هناك دموع كأملاح البحر ، ذات صباح امتد به البكاء حد الإعياء وكأنه يواجه أهوال القيامة ، وبعدها انفرجت اساريرة كسماء كانت مدلهمة بالغيم الأسود والأتربة ثم انفرجت عن سماء زرقاء صافية كأنها لم يشوبها شائبة.التهم أظافره بشراهة وكأنه يريد اقتلاعها من أصابعه للتقليل من القلق المفرط تجاه الحياة الجديدة التي بدأت معالمها تنجلي داخل روحه وواقعه بعد انتقاله الى العيش مع جده بسبب رحيل والدة ووالدته المبكرعن الحياة، كبر وهو يلوم نفسه وكل المحيطين به لأنه لم يختار حياته ، لم يكن كثير الحديث ،

ولا تستهويه الاجتماعات العائلية ، كان يسكن في دور علوي عند جده الحكيم على حد تعبيره ،ومزاجه المتقلب يدفعه الى التصرف بطريقة عدوانية أحيانا ، فأنت لا تأمنه أبدا ، وربما وأنت مستغرق في الحوار معه يدير ظهره لك ويمضي.لا أحد يعرف ما يعمل داخل عقله ، كانت غرفته تشبه عقله من ناحية الفوضوية ،إلا أنه يستطيع أن يتعرف على مكان أي شي يبحث عنه.

في احدى ليالي الصيف كان موجوعا يتألم من فقد صديقه العزيز جدا مع أنه لم يقل له يوما أنه يحبه ، وكان دائما على خلاف جوهري معه في كثير من القضايا،موت صديقة فتح جرحا نازفا لديه ، فالموت هو الذي شكل عقده النفسية على حد تعبيره ،وهو سبب اليتم الذي عاشه ، كان يتسائل قائلا: زهت حياتي ببريق حزن حط على جناح عمري، اليتم هو حالة نفسية تفقدك القدرة على التمتع بكامل قواك العقلية ، تجعلك تدور في فلك وحيد بعيدا عن اقمار ونجوم البشر ، ليس لديك مرجعية ولا يصبح الفرح ذا قيمة كبيرة ، والنجاح يصطف في عداد المفقودين ، لا تملك ان تتراجع او تقف ، وتنهمر لعناتك وسخطك على كل ما حولك، عندما فقدت والدي وأنا ابن الحادية عشرة شعرت بإحساس موجع ، مثل ارتطام الصخر بعضه ببعض يخلف صوتا كبيرا وشقوقا صغيرة تتسع نتواتها ودوائرها عبر الزمن ، في هذا الموقف الذي لا يتحمله قلب طفل تصبح الحياة مرعبة كظلمات اللجج وماعداها كابوس يتمنى أن يستفيق منه ، تترائى لي الحكمة في الفرق بين الحياة والموت، الموت هو لعبة مجهولة التعليمات موضوعه في الركن يعلوها الغبار لا أحد يلمسها أو يحب أن يلعب بها ، هي لعبة تقوم على طرفين مثل المعادلات الرياضية ، معادلة ذات مجهول واحد هي (x) وتعني الموت ، ومعادلة معلومة وهي الانسان ،وهو الطرف المعروف في المعادلة ، ومن أجل حل هذه المعادلة لابد أن نعرّف ذلك المجهول ليصبح معلوم. صعب اتقان أو حل تلك المعادلة فالمجهول هنا شيء غيبي ومرعب ، حتى الخوض فيه يدعوا للخوف ، فالموت هو فن مجهول يتحفنا بغموضه الشبيه بالظلام الذي كلما توغلنا بداخله كلما ازددنا خوفا وفقدنا الارادة والتوازن، ولم يكن الموت هو الحاجز بيني وبين الناس بل دمامتي ايضا هي التي تمنعني من مقابلة الآخرين، او الاحتكاك بالنساء ، لذلك اصب جام غضبي على السجائر ، فهي التي تمتص مني آخر نسغ من غضبي وحزني وبؤسي الدائم بالرغم من ان نوع السجائر الذي اختاره رخيص الا انه يفي بالغرض تماما ،شعوري وانا ادخن سيجارة كمن يعبد طريق اسمنتي في الصحراء ، وأجد صعوبة في أن اتحدث عن حياة الطفولة أما الأشد صعوبة هو ان اتحدث عن حياتي المختلة الان ..!!

لقد عشت عدّة سنوات عند جدي تأثرت جداً به إلى درجة انه كونني وصاغني كالعقد ، هذه المرحلة من عمري كانت فترة تاريخية مهمة لانتقالي من طور المسلمات الى مرحلة كسر هذه المسلمات واستبدالها بشيء مغاير.

لا أستطيع أن أكوّن رأياً واضحاً موضوعياً عن هذه الفترة من حياتي أو عن هذا الجد الحكيم التي وضعتني الاقدار بين يديه ، والذي تلقفني بحكمته وهدوئه وصبره علي ، وعندما أفكر فيه فإن عقلي يمتلئ بالضجيج وتتذوق نفسي طعم اللذة القاسية التي تنشأ من الخسارة والربح، فجدي عاش من اجلي لم اراه يفكر بنفسه ولو لمرة واحدة ، كانت الاولوية لي في حياته ، ماذا يعني ان تعيش على هامش الحياة لتخدم انسان اخر وترعاه ؟ جدي شخصيتة عميقة ورتيبة احياناً، ويحمل ملامح يغشاها حزن رمادي نبيل،نقي كآنية العطر ،صاحب مخيلة عذبة معّذبة ، والحياة في نظره تدور حول المسلمات ، وروح الدقة التي تظهر عليه أوقات العمل والصرامة الغير مبالغ فيها تميزه تميزا قل أن نجد له اليوم مثيلا.

هو قليل الرغبات فلا يرتبط بالحياة كما نرتبط بها ، وفي تجليه بمعاني الحياة تنظر له وكأنك تقرأ بداية كتاب ونهاية عاشق.

إني وأنا اشاهده ، اتطلع الى أن أكون شبيها به حتى احزانه النبيلة ، فقد فتح طريقا لثورة داخل عقلي لم يخمد أوراها حتى الان، شرحت له ذات مساء عن شعوري بـ اللامكان في السفر وعن مشاعري وأحاسيسي الحدية تجاه الحياة ، وعن حالة عقلية لا يستوعبها الا حكيم او مجنون .عندما افتقد لغة التواصل مع الآخر تصبح الحياة مرعبة كظلمات اللجج ،وفي لغة الموشحات الاندلسية تندلق أصوات عذبة تغني بحزن وعمق كنفوسنا الشرقية ،فنحس بأرواحنا تستريح وكأنها تحت سنديانة وارفة الظلال،هذه الأرواح لها من احزانها نصيب ومن حسراتها ما يشغلها عن بؤس الآخر ، فالحياة تصبح أحياناً كالجواد الحرون لا

تتقدم ولا تتأخر تقف بين البين بكل بلاهة ، ومع أننا قد نكون غرباء إلا أن الأرواح المتشابهه تلتقي باتجاه النمو والترابط ، لا شيء يردع روح تحن الى روح،ولا نستطيع إسدال حجاب اليأس على أرواح لا تناطح إلا الثريا في سموها ،فالينبوع يتفجر من الصخر ، والمروج الخصيبة يجب ان تعيش داخل قلوبنا ،،، وفي غفلة من الكون ،قالت لي هذا الجد الحكيم يالي من محظوظ يا بني ،،، هنا حلقة ناقصة اكتملت في عمري ..

اجبته : نعم يا جدي أن التسامح مع الحياة يجعل الانسان أفضل مما هو عليه أحيانا،،،الا انه طريق نحو شيء لا يشبه الأشياء ماذا ننتظر في هذا العالم النزق ، ففي قصة سئل تولستوي عن ماهي حاجة الانسان للأرض فأجاب : "إن الانسان بحاجة الى مترين فقط،موضع قبره " يا لبؤس حياة ينتظرها في نهاية النفق موضع مترين ، ولماذا نحزن ونشقى ونتشاءم كالغربان ،ونتحدث كثيرا ولا نصنع شيئا نعتز به لأنفسنا ولمن نحب ، لم يكن التسامح والتصالح مع الذات في نظري الا حياة معجونة بماء الجنة ،وبحكم عنادي الكبير ورفضي لكل ما يخالف المنطق أصاب بعدوى الإحباط ، الا أنني أستمر في تذوق الحياة حتى لو كانت مُرة .